بحث الشهر

بقلم الدكتور قسطنطين زريق

منذ اقدم الأزمنة * يضطرب العقل الانساني بين فكرتين متناقضتين : هما فكرة الثبات والدوام ، وفكرة التغيير والتبدل . فطوراً يميل الى الأولى ويؤمن بانها الحقيقة الأساسية في الكون والحياة ، وطوراً يخضع للاخرى وينظر الى ماحوله بمنظارها وتحت تأثيرها . حيناً يخلد الى الاستقرار متمسكاً بحقائق وعقائديعتبرها أزلية متعاليةعن ظروف المكانوالزمان، وحيناً آخر يسبح في بحران من الشك والاضطراب موقناً بان كل ما حوله متبدل زائل .

واذا نحن أمعنا النظر في حالة العالم اليوم وجدنا ان الفكرة الثانية هي الغالبة . فتقدم العلوم التطبيقية والفنون العملية وما احدثه من تطور سريع بالغ في حياة الانسان المادية ، وما كان له من اثر في تعديل النظم الاجتماعية والمقاييس والمفاهيم العقلية ، وما وقع فيه العالم بنتيجة هذا من أزمات حادة ومن منازعات وحروب شاملة — كل هذا قوى في المجتمعات البشرية اليوم الشعور بان كل شيء هو وليد الظروف التي تحيط به ، يتحول او يزول بتحول هذه الظروف او زوالها .

ولذا كان من الخير ان نعود بين آن وآخر في هذه الأيام الى تبين العناصر الثابتة الباقية من خلال التغير والتطور ، والى تلمّس الحقائق غير المتأثرة بالمكان او الزمان او سواهما من الظروف ، وان نذكر ان الواقع الانساني هو دوماً وليد عاملين مترافقين متفاعلين : هذه الحقائق الثابتة من جهة ، ومن جهة ثانية مقدرة العقل الانساني على إدراكها وتكييف الحياة بحسبها . وما الاختلاف الذي نشاهده في مظاهر الحياة وفنونها واساليبها سوى اختلاف في مقدرة العقل ، في مراحل تطوره المتتابعة ، على إدراك هذه الحقائق ، وفي مدى قربه منها او بعده عنها ، ودرجة خضوعه لها او ثورته عليها .

وموضوع هذا البحث — التربية العربية — مثل واضح على ما اقول . فأهداف التربية هي واحدة — او بالأحرى يجب ان تكون واحدة — مهما اختلفت الأمم او البلاد او الشعوب ، لأنها مرتكزة على أصل ثابت هو الانسان ، الانسان أينما ومتى وكيفما كان . والتربية العربية لا يمكن ان تفترق في غاياتها الرئيسية البعيدة عن اية تربية اخرى ، ما دامت كل منهاترجع الى اصلها الانساني الواحد . هذا الأصل هو ان الانسان كائن ذو شخصية ، وانه يتفرد عن الكائنات الأخرى بهذه الصفة ، وان الغاية التي يجب ان يسعى اليها هي تفتح هذه الشخصية ونموّها ، واكتسابها الحرية والكرامة . فالانسان البدائي عبد: عبد للطبيعة التي تسطو عليه بمعالمها وقواها ، وعبد لنفسه التي تتحكم به باوهامها وأهوائها . وتقدّمه ونموه وحضارته انما تقوم على مدى ما يتحرر من هذه العبودية المزدوجة ، وما يحقق بذلك من كرامته الذاتية .

ان جميع الجهود الايجابية الانسانية : كالثورة على الظلم بشتى انواعه ومظاهره ، والاصلاح الاجتماعي بمختلف اشكاله ، والانتاج العلمي والأدبي والروحي ، والتربية والتعليم ، كلها تتجه الى هذه الغاية الأصيلة وتسعى الى إدراكها . وللتربية من بينها دور بارز ومقام ممتاز . ذلك لسببين : اولهما فعلها المباشر واثرها النافذ ، فهي تتوجه الى الشخصية الانسانية رأساً وتعمل لتحررها من الوهم والجهل والهوى ، منمية قواها العقلية والروحية ، باعثة إياها على التمييز بين قيم الحياة وعلى اكتساب ارفعها واصفاها . قد تكون بعض الوسائل الأخرى اسرع من

* محاضرة ألقيت بمؤتمر الدراسات العربية في جامعة بيروت الاميركية .

التربية فعلاً ، وأبين اثراً ، ولكن نتائج التربية تظل اعمق غوراً واقوى ترابطاً واكثر استمراراً وتراكماً . اما السبب الثاني فهو ان جميع الجهود الاصلاحية الأخرى موقوفة الى حد ما عليها ، لأنها هي التي تصل بينها وتنقلها من جيل الى جيل ، وتوجد العناصر البشرية الكفيلة بتنفيذها وبدفعها في سبيل التقدم والتكاتف . أليست التربية هي التي تغرس في النفوس تعاليم الثورات الاصلاحية والاندفاعات التقدميه فتحفظ نتائجها وتمهد لما يأتي بعدها ؟ أليست هي العامل الأساسي في نقل الاكتشافات العلمية والانبعاثات الروحية ، وفي نشرها وتعميم ثمارها ؟ أليست هي التي تكوّن الرجال والنساء المؤهلين للنهوض بهذا كله ، بل بكل إنتاج منتظم تقدمي ؟ ؟ إذن لا بدع ان يكون لها — كما قلنا — بين الجهود الايجابية الانسانية المقام الممتاز والأثر البارز .

على ان هذه النظرة الى التربية — كعامل أساسي في تحرر الشخصية الانسانية واكتمالها واكتسابها كرامتها الذاتية — لم تكن هي النظرة السائدة في جميع العصور ، ولعلها ليست السائدة في عصرنا هذا . إذ كثيراً ما كانت التربية تعتبر وسيلة لتلقين معلومات معينة ، او للتدريب على مهنة من المهن ، او تنمية ناحية واحدة من الشخصية الانسانية ، كالتفكير النظري او الوضوح الذهني . وما يزال الأمر الى حد كبير كذلك في وقتنا هذا . غير ان المفهوم الصحيح الشامل للتربية كما بيّنا آخذ في الاتضاح والانتشار ، وعلى مدى هذا الاتضاح والانتشار يتوقف ما يرجى من إصلاح في التربية نفسها ، وفي المجتمع الانساني عموماً .

★

ومفهوم التربية العربية لا يمكن ان ينفصل عن هذا المفهوم العام للتربية . فالتربية العربية يجب ان تهدف الى تنمية شخصيات افراد المجتمع العربي لتحرر من الفقر والمرض والجهل والهوى ولتحقق كرامتها ، فتتحقق للمجتمع العربي عامة حريته وكرامته . غير ان هذا المجتمع هو الآن في موقف معين من تاريخه ، وفي مرحلة من مراحل تطوره ، فلا غرابة في ان تتأثر التربية العربية في غاياتها ووسائلها بهذه الظروف المعينة ، وان تتفاعل وهذه الظروف فتقترب حيناً وتبتعد حيناً آخر من الهدف الأصيل للتربية الصحيحة .

ولكي نفهم التربية العربية الحاضرة ، ونحكم بانصاف لها او عليها ، يقتضي ان نقف على حال المجتمع العربي ونطلع على القوى التي توجهه والحاجات التي تستنهضه .

ان اهم هذه الصفات والحاجات هي ، في نظري ، ما يلي :

اولاً : انه مجتمع في المرحلة الاولى من نهضته . فلقد مضت عليه قرون أخضع فيها لحكم اجنبي انضب موارده ، واطفأ اضواءه العقلية والروحية . وها هو الآن ينشط وينبعث ، ويتلمس طريقه الجديدة في الوجود . فهو في اكثره فقير ، جاهل ، مريض . هو فقير لان موارده الطبيعية اما في يد غيره او لا تزال بوراً لم يستغل منها الا القليل ، ولان هذا القليل المستغل ليس موزعاً توزيعاً عادلاً بين افراده . وهو مريض وجاهل لان عصور الظلام التي تتالت عليه افقدته حيويته ، وجعلته مستعبداً لسلطان الطبيعة ولسلطان اوهامه واهوائه . ولذا فان اولى حاجاته الاساسية هي الى تحرير جماهيره من هذه الامراض الاجتماعية الطاغية عليها : الفقر ، والمرض ، والجهل ، وما يتولد عنها من علل فتاكة اخرى .

ثانياً : انه في مطلع هذه النهضة مقبل على تنمية موارده ، بتوسيع الزراعة والصناعة والتجارة ، والمواصلات ، وتحسينها . لقد نفذت اليه مؤثرات المدنية الغربية واحاطت به من كل جانب . ولما كان الوجه التكنيكي الانتاجي من هذه المدنية هو الابرز ، وكان المجتمع العربي قد اخذ يتنبه بسرعة متزايدة لحاجاته المعيشية والقومية ، فقد عمد افراده وجماعاته وحكوماته للعمل على استخراج موارده الدفينة واستثمارها . فبذلوا جهوداً ناشطة تتعاظم سنة بعد سنة ، ولكنها لا تزال في المراحل الاولى بالنسبة للامكانيات الغزيرة ، وللحاجات الوافرة التي تفرض نفسها بازدياد والحاح .

ثالثاً : ان المجتمع العربي الحاضر يحاول إيجاد اجهزة جديدة للحكم وللتنظيم الاجتماعي بشتى وجوهه . فتنمية موارده الاقتصادية تستدعي تنظيماً يختلف عن حياته الاقتصادية البسيطة السابقة ويتبع قواعد التنظيم الاقتصادي الحديث المتشابك المعقد . وكذلك القول في شؤون الدفاع والاصلاح الاجتماعي والتنسيق الاداري وما اليها . ويدخل في هذا كله ويسيطر عليه الجهد في انشاء حكم دمقراطي يكون للشعب الكلمة الاولى فيه ويوجه لمصلحة الشعب ذاته . وبعبارة اخرى ان المجتمع العربي مدعو الى اقامة تنظيم دولي حديث بما يستتبع من ترتيب وتنسيق في الشؤون الداخلية ، وما يقتضي من اتصال بالدول الاخرى في عالم قد تعددت روابطه وتوثقت صلاته ، ولم يعد

بامكان اي مجتمع من مجتمعاته ان يعيش بعزلة عن سواه .

رابعاً : ان المجتمع العربي متعدد النزعات التي تتقاسمه والعصبيات التي تتوزعه ، وفي مقدمتها الطائفية والقبلية والاقطاعية والاقليمية. وهو يحاول التغلب على هذه النزعات، وصهرها في بوتقة واحدة – بوتقة القومية – ، ولذا يحتاج الى ما يمكنه من توثيق وحدته وجمع كلمته وضم جهود ابنائه المتفرقة – المتنافرة احياناً – الى غاية واحدة في سبل متوافقة متساندة .

خامساً : انه مجتمع محاط بالاخطار الخارجية : خطر الاستعمار السياسي الذي لا يزال جاثماً على بعض اجزائه ، والاستئثار الاقتصادي الذي يتحكم بقسم هام من موارده ، والاطماع المختلفة التي تحيط به من كل جانب ، وخطر حرب عالمية عاتية تكون بلاده ميداناً من اهم ميادينها وتتعرض فيها جميع مظاهر حياته للتبديد والتهديم والزوال – وقبل هذا كله ، وفوق هذا كله خطر اسرائيل التي غلبته على امره ، واقامت كيانها في قلب وطنه وهي تستعد الآن لجولة ثانية في صراع لايستهدف مالاً او غنيمة وانما ارض الوطن ذاتها والوجود القومي في كنهه ، صراع حياة او موت لأي من الفريقين .

فمن حاجات المجتمع العربي الاساسية أن يتنبه الى هذا الخطر ويشعر بجسامته ، وان تكوّن فيه الصفات التي تؤهله للصمود في وجهه ثم التغلب عليه .

سادساً : انه مجتمع حائر بين تراثه القديم والمدنية الحديثة ، فهو من ناحية يتحسس بمدنيته العربية الغابرة ، ويرغب في تمتين اصوله المغروسة فيها ، ويفاخر بما انتجت هذه المدنية في زمن ازدهارها وما اغدقت على العالم من ثقافة وحضارة، ويسعى إلى ان يبعث في نفسه الصفات والمواهب التي ولدتها هذه القومية . ولكنه ، من ناحية ثانية ، محاط بالمدنية الحديثة تطل عليه من كل صوب، وتفرض نفسها عليه بالحاح وتستهويه بنتاجها الايجابي الباهر وبمظاهرها المادية الخلابة. ولذا نراه، على العموم، متردداً بينهما ، منقسماً على نفسه في النظر اليهما ، لم ينجح بعد في ان يستخرج منهما قيماً منسجمة يسير اليها بوضوح وعزم. فهو بحاجة ماسة الى هذا التوفيق بين مصادر حياته العميقة ، التي تغذي جميع مجاري نشاطه .

سابعاً : ان المجتمع العربي يسعى الى جمع هذه المحاولات كلها التي اشرنا اليها في جهد شامل هو الجهد لانشاء كيان قومي يوفي هذه الحاجات الاساسية ، كيان متحرر من الاستعمار والتحكم الخارجيين ، نامٍ منتظم اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، متغلب على الفقر والمرض والجهل وسواها من الآفات الاجتماعية كيان متراص موحد الغايات والنزعات ، شاعر بما يحدق به من اخطار غير هياب لها ، موفق بين تراثه القديم والمدنية الحديثة واصل صلة صحيحة ماضيه بحاضره ومستقبله . ولست اعني ان الفكرة القومية بمفهومها هذا هي السائدة في المجتمع العربي اليوم، فهناك فكر وعقائد اخرى تنازعها ، كما ان القائلين بالقومية لا ينظرون اليها جميعاً هذه النظرة الجامعة الشاملة . وانما اعتقد ان هذه النظرة ، وهذا النوع من التفكير والجهد ، هما اللذان يقويان على الايام وسيسودان في المستقبل، وهما المؤهلان لتحقيق اغراض المجتمع العربي وإدراكه غاياته .

ثامنا وأخيراً : ان المجتمع العربي المجابه لتلك الحاجات الاساسية، المدعو الى بذل هذه الجهود الجبارة داخليا وخارجيا يتطلع الى قادة يحددون له الغايات ويخططون له السبل ويوجهونه اليها ، قادة فكر يوضحون ويرسمون ، وقادة عمل ينظمون ويدفعون . فكل ناحية من نواحي حياته تفتقر الى هذا النوع من القيادة ، وجهاده القومي العام بحاجة الى القيادة المختارة التي هي الشرط الاول لبناء الامم وانشاء الحضارة .

★

فلنتساءل الآن : الى اي حد تفي التربية العربية بهذه الحاجات ؟ ماذا حققت واين اخفقت ؟ وما هي السبيل التي يجب ان تتبعها لبلوغ غاياتها القريبة والبعيدة ؟

قبل محاولة الاجابة عن هذه الاسئلة، لا بد من القول اولاً ان النظم التربوية التي انشئت في البلاد العربية لم ترتكز على دراسة شاملة منظمة لحاجات المجتمع العربي . لا شك ان هذه النظم تستهدف بعض الغايات التربوية العامة لهذا المجتمع ، او المجتمعات التي تؤلفه والتي من اجلها انشئت هذه النظم، لا شك انها تسعى الى نشر التعليم ، وتنشئة المهنيين والاختصاصيين ، وتحقيق الوحدة القومية .

ولكن النظم بروحها وشكلها لم تأتِ نتيجة لايضاح مسبق لهذه الغايات وتحديد وافٍ لحاجات المجتمع ، وعزم على توفية هذه الحاجات عن طريق التعليم . وانما نقلت هذه النظم نقلاً عن بعض النظم الغربية – الفرنسية والبريطانية – مع بعض تعديلات في البرامج والأساليب والوسائل لتتفق مع مقتضيات المحيط . ويجب ألا ننسى ان اسس هذه النظم ومعالمها الرئيسية

وضعت في زمن الحكم الأجنبي وبيد الأجانب انفسهم ، ولم يلحقها في عهد السيادة تبديل أساسي يصلها بالمجتمع ويمتن جذورها فيه . إني لست من الذين ينكرون الاقتباس من الغرب ، فالغرب لا شك سابق لنا بمراحل في شؤون التعليم وسواها ، وعلينا ان نستفيد من اختباره الواسع في هذه الشؤون كلها . انما يجب ان يكون اقتباسنا صادراً بالدرجة الأولى عن حاجاتنا الأصيلة وملبياً لها . كما يجب ان نسعى الى آخر ما توصل اليه الغرب من اختبار وإنتاج . وهذا لا يصدق على النظم التي اخذناها في حقول التربية والتعليم ، إذ هي اليوم في بلادها موضع شك وتساؤل ، وتعديل وتحسين . اما نحن فقد قبلناها على علاتها ، وما زلنا بها متمسكين .

من ضمن هذا التحفظ ننظر الى التربية العربية ونحاول قدر النتائج التي حققتها .

قلنا ان المجتمع العربي لا يزال في المرحلة الأولى من نهضته وان الفقر والمرض والجهل وما ينتج عنها من امراض اجتماعية فتاكة لا تزال ساطية عليه . ولذا كانت حاجته الأولى ، من الناحية التربوية ، هي الى مكافحة الجهل . ولا ريب ان الحكومات العربية والأفراد والهيئات الأهلية قد قامت بجهود عظيمة في هذه السبيل . فدساتير الدول العربية الديمقراطية تنص على واجب الدولة في تعميم التعليم وتمكين أبناء الأمة منه ، وفي مكافحة الجهل والقضاء على الأمية . وعدد الطلاب في المدارس ، وعدد المدارس نفسها ، في ازدياد مستمر ، يدعو في بعض الحالات الى الفخر والاعتزاز ، ولعل من الضروري التنويه بصفة خاصة بالتوسع العظيم الذي حدث في تعليم البنات ، مما لم يكن منتظراً حتى عهد قريب . كما تجب الاشارة الى الارتفاع المتزايد في نفقات التعليم التي تتحملها الدولة ، وفي النسبة المخصصة من ميزانيتها لهذا الغرض .

لست بحاجة الى ذكر الأرقام والاحصاءات ، اذ يمكن الرجوع اليها في حولية الثقافة العربية التي وضعها العلامة الأستاذ ساطع الحصري ، وهي كلها تدل على الجهد النامي الذي يبذل في المجتمع سعياً الى هذا الهدف . كما ان هناك ظاهرة لا تنكر في جميع البلاد العربية يراها ويحس بها كل منا : هي اقبال الشعب على التعلم ، وازدياد الطلب على الحكومات لفتح مدارس جديدة وتوسيع ابواب العلم ، والتضحيات التي يبذلها افراد الشعب في سبيل تعليم ابنائهم وبناتهم . والحكومات تشعر بضغط متزايد لانماء جهودها في هذا الميدان ، وتلبية المطالب الشعبية المنصبة عليها من كل ناحية .

على ان هذه الجهود تصطدم بعقبتين كؤودين : اولاهما امكانيات الحكومات المادية ، فان هذه الحكومات اذا استمرت على تحمل هذا الواجب على النحو الذي فعلت في السنوات الأخيرة ستجد نفسها عاجزة عن القيام به ، اذ انه يتطلب نسباً متزايدة من ميزانياتها ، ويشل فاعليتها في الميادين القومية الأخرى . ولمواجهة هذه الصعوبة يقتضي اولاً : إلقاء جزء من هذا العبء على السلطات المحلية ، كالبلديات وامثالها ، فتساهم هذه في تقديم ابنية المدارس او سواها من النفقات . لقد عمدت بعض الحكومات العربية الى محاولات من هذا القبيل ، ولكن هذه المحاولات لا تزال في مراحلها الأولى ، لم تأت بعد بالنتائج المطلوبة . ثانياً : تشجيع الهيئات الشعبية على تأسيس المدارس ، وبسط شيء من العون لها في هذه السبيل ، شرط ان تلتزم الأهداف القومية المفروضة في تربية النشء . ان في هاتين الخطوتين فائدة مزدوجة ، فمن ناحية ، تخفيف عن كاهل الحكومة المركزية الذي اخذ ينوء بتبعات التعليم المالية ، ومن ناحية ثانية إثارة لاهتمام افراد الشعب وجماعاته بشؤون التعليم في مناطقهم ، بحيث تصبح المدرسة لا جزءاً من جهاز الحكومة ، بل خلية من خلايا المجتمع تتفاعل والخلايا الأخرى تفاعلاً حياً لنمو المجتمع وتقدمه . اما الخطوة الثالثة فهي الخطوة الرئيسية ، ومؤداها تنمية موارد الأمة وتحقيق امكانياتها الاقتصادية وتوفير دخلها القومي ، ثم فرض الضرائب الضرورية العادلة على افرادها . ويجب ان نذكر ان تعميم التعليم الابتدائي لم يتحقق في الغرب الا بقدر ما تم لامه من نهضة صناعية استغلت مواردها على نطاق واسع ومن استعداد عند افرادها لتأدية واجبهم من الضرائب والتخلي عن قسم متزايد من دخلهم لحكوماتهم .

على ان العقبة المالية قد تذلل وتبقى العقبة الثانية ، وهي ايجاد المعلمين . فالبلاد العربية بحاجة الى عشرات الالوف من المعلمين للقضاء على الامية ونشر التعليم . وتنشئة المعلم اشد صعوبة وابعد منالاً من ايجاد المال ، لما تتطلب من زمن للاعداد ولما تفرض من اختصاصيين للقيام بهذا العمل . وهكذا دوماً شأن الامور الانسانية ، لا تتحقق باليسر والسرعة اللذين تتحقق بهما الامور المادية . وان هذه الصعوبة في توفير

المعلمين لتعظم وتشتد إذا لم تستهدف الكم فحسب ، بل الكيف ايضاً ، واردنا ان نهيء للجيل الجديد العناصر الصحيحة المؤهلة حقاً لهذه المهمة الخطيرة . لهذا كان من اهم الغايات التي يجب ان تنشدها التربية العربية في هذه المرحلة من تطورها العناية المستمرة بدور المعلمين : زيادة عددها ، وتعزيزها ، ورفع مستواها ، وذلك بتوفير الاعتمادات الوافية لها ، وبايجاد الاختصاصيين القادرين على تعهدها ، وبكل وسيلة اخرى تكفل تخريج المعلمين الذين تحتاج اليهم البلاد العربية كما و كيفية .

لقد نجحت التربية العربية ، ضمن الحدود والقيود التي ذكرنا ، في القيام بواجبها في نشر التعليم ومكافحة الامية . كما نجحت ، ضمن حدود ايضاً ، في رفع مستوى التعليم عما كان عليه . فانا إذا نظرنا الى البلاد العربية نظرة عامة وجدنا بلا ريب ان هذا المستوى قد ارتفع عما كان عليه قبل ادخال النظم التربوية الجديدة ، واخذ الدول العربية على عاتقها هذا القسط الكبير من واجب التعليم . فالمدرسة الابتدائية اليوم هي غير الكتّاب وامثاله من المدارس القديمة ، والتعليم الثانوي الذي كان في غاية الضآلة قد تركزت اصوله وهو آخذ بالنمو السريع ، والتعليم الجامعي الوطني قد غُرس وتُعُهد وبدأ يعطي اول ثماره .

هذا فيما يتعلق بالحاجة الاولى للمجتمع العربي : مكافحة الجهل . اما الحاجتان الثانية والثالثة وهما تنمية الموارد وانشاء اجهزة الحكم والتنظيم الاجتماعي ، فان نجاح التربية العربية في تلبيتها كان وما يزال ادنى كثيراً من المطلوب، وذلك لعيوب اساسية في النظم التربوية التي اتبعتها البلاد العربية في جميع مراحل التعليم : الابتدائي والثانوي ، والجامعي . فمركز الثقل في التعليمين الابتدائي والثانوي هو التعليم النظري التقليدي . والمدرسة الابتدائية هي على العموم نفسها في الريف وفي المدينة مع ان حاجات ذاك غير حاجات هذه . ان المطلوب من المدرسة الابتدائية الريفية هو ان تكسب ابن الريف مبادىء المعارف وتجعله بالوقت نفسه عضواً منتجاً لمجتمعه بما تلقنه اياه من مبادىء الزراعة الحديثة وحفظ الصحة وامثالها من مقتضيات محيطه . اما مدرستنا الابتدائية الحاضرة فانها بروحها ونظامها وبرنامجها تبعد ابن الريف عن ارضه وتنفره منها ، وتدفع به الى المدينة لمتابعة دراسته النظرية او لطلب الرزق من اعمال ليست في اغلب الاحوال انتاجيه كالعناية بالارض . ولذا بدلاً من ان تكون هذه المدرسة عاملاً في تنمية موارد البلاد تصبح اداة لاقصاء النشء عن الارض واهمال امكانياتها . انني لست من القائلين بحصر ابناء الريف في مناطقهم ، وعدم استفادة مراكز الحضارة والحكم من مواهبهم — فالامة تحتاج في تكوين قيادتها الى ما عند ابناء الريف من مواهب فطرية ونشاط طبيعي واتصال عميق بارض الوطن وتقاليده . ولكنها اذا استنزفت الريف ، خسرت اهم مصدر من مصادر قوتها . والتربية اذا اتجهت الى هذا الاستنزاف — كما تتجه التربية العربية اليوم — اعرضت عن هدفها الصحيح وجرت البلاد الى عواقب وخيمة.

والحال نفسها نجدها في التعليم الثانوي . فالقسم المهني منه ضئيل جداً بالنسبة الى القسم النظري . والحكومات والاهلون لا يبذلون له من العناية بقدر ما يتطلبه انماء موارد البلاد . ولا اظنني بحاجة الى ايراد الادلة والاسناد لأبيّن ان الشريان الرئيسي للتعليم الثانوي في البلاد العربية (واعني به ذلك المؤدي الى الشهادة الثانوية العادية) هو نظري بحت يكاد يكون خلواً من اي اتجاه عملي ، وان الشرايين الفرعية الموازية له — التعليم الصناعي والزراعي والتجاري — ضيقة ضعيفة بالنسبة اليه . فالمدارس المهنية قليلة العدد ، وهي لا تحتل في نظر الحكومة والرأي العام مقامها اللائق ، كأنها وقف على الفقراء المحتاجين او الذين يلفظهم التعليم النظري . ونتيجة لهذا كله تجد البلاد نفسها مفتقرة الى المهنيين المدربين على المساهمة في الأعمال الانشائية الانتاجية ، بينما هي تعج بالشبان الساعين الى الوظائف غير المؤهلين للانتاج المنمي موارد البلاد ، المحقق قابلياتها .

وكذلك الأمر في التعليم الجامعي . ان نتاج الجامعات في البلاد العربية غير متفق مع ما تحتاج اليه البلاد من إنماء وتنظيم. فالمهندسون والكيميائيون والزراعيون والمختصون بعلم طبقات الأرض والتعدين اقل من الأطباء والمحامين . ولهذا كانت مساهمة جامعيينا في الانماء الاقتصادي دون المطلوب في هذه المرحلة من حياتنا التي ندعى فيها لتفجير مواردنا واستغلال امكانياتنا الى ابعد حد ممكن . ونكاد نقتصر في سد حاجتنا الى التنظيم على تخريج الحقوقيين ، بحيث اصبحت شهادة الحقوق عندنا السبيل الرئيسي لوظائف الحكومة ولكثير من الأعمال الحرة . اين المختصون بالاقتصاد والمالية والتجارة الذين يعتمد عليهم في تنظيم هذه النواحي الهامة من حياتنا ؟ ؟ اين الذين

انكبوا على العلوم الاجتماعيـــة ليوضحوا لنا مشاكل الأسرة والعامل والفلاح والفئات غير المنسجمة في المجتمع ، ويرسموا لنا طرق حلها ؟ بل اين الذين انصرفوا الى دراسة شؤون التربية نفسها ، ليعمدوا الى تنظيمها على ضوء احدث نتائج العـــلم والاختبار ؟ الحق ان تعليمنا الجامعي مقصّر — كالتعليمين الابتدائي والثانوي — في سد حاجة الأمة الى الانماء الاقتصادي ، ورفع مستوى معيشة الشعبُ . ومقصر كذلك في ما يرجى منه ، دون ذينك التعليمين ، من توفير الاختصاصيين المؤهلين للقيام بشؤون التنظيم في شتى نواحي حياتنا .

لقد ذكرنا ان من الحاجات الرئيسية للمجتمع العربي الحاضر توثيق عرى تضامنه وصهر نزعاته المتباينة في بوتقة واحـــدة . والناظر في امر التربية العربية يرى انها استهدفت هذه الغاية . غير انها سلكت طريقاً بعيدة معوجة لم توصل اليها ، وأدت بالوقت نفسه الى مساوىء تربوية واجتماعية خطيرة. هذه الطريق هي المركزية الشديدة في الادارة ، ووحدة البرامج ، وسيطرة الدولة على الامتحانات والكتب الدراسية وسواها من شؤون التعليم ، والسبل المماثلة التي يعتقد خطأ انها تحقق الوحدة القومية. اجل ! ان من حق الدولة ، بل من واجبهـا ، ان تتأكد ان المعاهد العلميـة تعنى العناية الكافية بلغة البلاد وتاريخها ودراسة احوالها الحاضرة ، كي لا يصبح ابناؤهـــا غرباء في وطنهم . وكذلك من حقها — بل من واجبها — ان تسهر على ان تكون الكتب التي توضع بين ايدي النشء موافقة للأهداف الوطنية ، عاملة عـلى بعث الروح القومية وتقوية رابطتهـــا . ولكني لا ارى ان في توحيد برامج المواد العلمية — مثلاً — ما يؤدي الى هذه الغاية .

ان تعزيز الوحدة القومية بالتربية له عندي سبيل رئيسيـة واحدة ، هي المعلم . المعلم هو نقطة الانطلاق وخاتمة المطاف . وشخصيته اقوى عامل فعال في نفس الطالب . فقد ننظم افضل المناهج ، ونحرص على ايجاد احسن الكتب التدريسية ، ونبقى دون الوحدة القومية المرجوة اذا كان معلمونا ضعاف الأخلاق والقومية ، مختلفي المنازع والأهواء . وبالعكس إنا بالغو هذه الوحدة عن طريق التربية اذا أحسنا اختيار المعـــلم وجهزناه تجهيزاً صحيحاً علمياً وخلقياً وقومياً ، حتى لو ظلت مناهجنا خاطئة وكتبنا فاسدة . فالى العناية بالمعـلم : بحسن اختياره ، بصحة تدريبه ، بتنمية روح المسؤولية فيـــه ، ببعث روحه القومية ، بتعزيز شأنه في المجتمع — الى هذا يجب ان تتجه انظارنا لادراك غايتنا في التوحيـد القومي ، بل كل غاية من غايات التربية .

اما الطريق التي سلكناهـا فقد أدت كما قلت الى مساوىء جمة نعرفها جميعاً وأكتفي منها بما يلي :

اولاً : طغيان سلطان الدولة على شؤون التعليم ، مما يخفف اهتمام الشعب وحرصه على المساهمة بهذه الشؤون ، ويولد عنده فكرة خاطئة هي ان المدرسة جزء من جهاز الدولة لا خلية من خلايا المجتمع .

ثانياً : طغيان المركزية في الدولة ذاتها بحيث ان السلطات المحلية تفقد روح المبادرة ، وتصبح مجرد آلات خاضعة للمركز ، تتحرك بحركته وتقف بوقوفه .

ثالثاً : تعرّض سياسة التعليم ، ونظمه ، ومؤسساته للتغيير والتبديل بتغيير الحكومات ، وفقدانها بذلك صفـة الاستقرار والتقدم الذاتي على مر الأيام .

رابعاً : إضعاف روح الابتكار في المدارس ، وإحجامهـا عن إنتاج طرق تربوية جديدة ، واستنباط الوسائل والأساليب التعليمية واختيارها .

خامساً : انصراف الطلاب الى الحفظ وتلقن المعلومـــات وحشو الدماغ استعـــداداً للامتحان ، بدلاً من تنمية قواهم العقلية ومداركهم الفكرية .

سادساً : قصر الاهتمام في التربية على الناحية العقليـــة من شخصية الطالب ، دون الناحيتين الخلقية والروحية .

سابعاً : انتشار الاعتقاد ان عناصر التربية هي : البرنامج ، والكتاب ، والامتحان . مع ان العنصرين الأساسيين همـــا الأستاذ والطالب . ان التربية الحقيقيـــة هي اتصال شخصية بشخصية ، شخصية فاعلة مكونة بشخصية منفعـــلة متكونة ، وليست اتباع برنامج او حفظ مواد او اجتياز امتحـان ، او هذه الثلاثة معاً .

★

مما سبق يتبين مقدار نجاح التربية العربية أو إخفاقها في إيفاء الحاجات الأساسيـــة الأربع الأولى للمجتمع العربي : وهي مكافحة الجهل ، وتنميـة الموارد ، وتنظيم الحكم والاجتماع ، وتحقيق الوحدة القومية . واذا كانت تربيتنا قد أصابت شيئاً من النجاح في هذه المواطن ، فانها أخفقت في تذليل الحاجات

الأربع الباقية ، وهي تنمية إحساس النشء بالخطر المحدق بامته ، التوفيق بين التراث القديم والمدنية الحديثة ، تكوين العقيدة القومية الشاملة وتخطيط سبلها ، إنشاء قادة الأمة في ميادين الفكر والعمل . والأسباب المؤدية لهذا الاخفاق هي نفسها التي أشرنا اليها ، وأهمها آلية التعليم منهاجاً وادارة ، وتوجهه الى التلقين والحفظ ، واهماله النواحي الخلقية والروحية من شخصية الطالب ، وعدم العناية الكافية بتدريب المعلم. وبذا يخرج الطالب ولم يتعرف من دراسته أحوال أمته ، ولم يحس بأزمتها العميقة ، ولم يدرّب على التقشف والتضحية وتحمل التبعة ليحيا الحياة الصارمة التي يتطلبها موقف أمته الخطر ، وبذا تقصر تربيتنا عن تكوين الفضائل وتنشئة الشخصية الفردية والاجتماعية الضرورية للصراع العنيف الذي ستجابهه الأمة. خارجياً وداخلياً والذي عليه يتوقف بقاؤها وتقدمها وازدهارها.

اما فيما يتعلق بالتوفيق بين التراث القديم والمدنية الحديثة ، وتكوين العقيدة القومية الشاملة وتخطيط الجهاد القومي ؛ فانها مرهونان بالحاجة الاخيرة والاهم ، وهي تنشئة القادة . فاذا وفقت تربيتنا الى اخراج القادة الصالحين ، تولى هؤلاء هاتين المهمتين الخطيرتين ، واخذوا على عاتقهم المهام القومية الاخرى في التربية وسواها من الحقول. على ان تربيتنا الحاضرة — وهنا اقصد بالتخصيص التربية الجامعية — ليست موجهة لتنشئة القادة وتكوينهم . فالطابع التدريبي المهني لا يزال غالبا عليها، وهي خاضعة، بدرجات متفاوتة ، للآلية الحكومية التي تسلب التربية كثيراً من محتواها الذاتي والانساني . كما انها تعمل الآن في سبيل الكمية فلا تعنى العناية اللازمة بالكيفية، ولا تبذل الجهد المطلوب لتنمية الابتكار الشخصي ، والاستقلال الفكري ، والمقدرة على التتبع والبحث ، والفضائل الخلقية والروحية التي يجب ان يتحلى بها القادة . ان اوضاع تربيتنا الجامعية ، الذاتية والظرفية ، تجعلها تتوجه الى انتاج وسطي وافر لا الى انتاج ممتاز مختار . فلا بدع الا تخرج لنا القادة الصالحين ولا تولد لنا الزعامة المطلوبة .

ولا بد لي من الاشارة هنا الى الدور البارز الذي تلعبه كليات الآداب والعلوم في تنشئة قادة المجتمع ، في الميدان الفكري خاصة . فمع ان هذه التنشئة ليست مقصورة عليها ، فان للكليات المهنية حصتها واثرها في هذا العمل الخطير ، فلا ريب ان كليات الآداب والعلوم هي المعاهد التي فيها تعالج المشاكل الانسانية الاصيلة ، وتوضح الفكر والمبادىء العامة التي عليها يرتكز كل بحث واستقصاء . فيها يدرب الطلاب على التأمل ، وعلى مجابهة قضايا العقل والروح ، وعلى استكشاف المنابع الاولى لحياة المجتمع والمثل العليا لنهضته ورقيه ، وعلى التمييز بين القيم واحترام ارفعها وارقاها . فهي بهذا الوصف لب « الجامعة » ، وازدهارها ضروري لتغذية الكليات الاخرى كي لا يكون متخرجو هذه الكليات مهنيين فحسب ، بل مثقفين ثقافة عامة بكل ما في هذه الكلمة من معنى شامل عميق. كما انها ، كما قلنا ، مدعوة قبل سواها لصنع قادة الفكر ، وما أحوج المجتمع اليهم ، خصوصاً اذا كان كمجتمعنا على مفترق الطرق ، وفي غمرة أزمة كيانية يتوقف عليها كنه وجوده .

★

والآن ، بعد ان استعرضنا التربية العربية الحاضرة ، وقدرنا نتائجها ، وبينا جهد المستطاع حدود نجاحها وإخفاقها ، سنرسم بايجاز كلي السبل التي يجب ان تتبعها تربيتنا والشروط التي يقتضي ان تستوفيها لتقوم بمهمتها في المجتمع على الوجه الصحيح.

اولاً : حماية الجهد التربوي من أهواء السياسة ، وهي الداء الوبيل الذي يجعل التربية عرضة للتبديل وغذاء للأطماع والمصالح. والتربية اقدس من ان تكون وسيلة لأغراض شخصية او حزبية ، اواي غرض آخر غير اكتشاف الحق وتنمية الشخصية الانسانية . فعلى رجال السياسة ان يرعوا لهذا الميدان المقدس حرمته ، وعلى اهل التربية ان يبرهنوا على انهم اهل لهذه الحرمة وانهم حريصون على صيانتها ، وعلى الرأي العام اليقظ المستنير ان يسهر على هذه الصيانة ويكون لها الحارس الأمين .

ثانياً : تخفيف وطأة المركزية على التعليم ، وذلك باشراك السلطات المحلية الحكومية بنفقات التعليم العام وإدارته ، وتشجيع الأهلين على إنشاء المدارس ومكافحة الأمية شرط ان يخضعوا في هذا لاشراف الدولة ومراقبتها ، وتوزيع المسؤولية في إدارات المعارف او التربية المركزية ، وإثارة روح المبادرة والانتاج الشخصي والابتكار عند جميع المعنيين بهذه الشؤون .

ثالثاً : تعزيز الأجهزة الفنية في إدارات المعارف . ان الحكومات بأخذها على عاتقها هذا القسط الوافر من شؤون التربية حريّة بان تعدّ له عدته وتهيء أسبابه . وفي مقدمة هذه الأسباب الأشخاص المختصون بهذا العلم . فلم يعد بالامكان في هذا العصر الذي غدت فيه التربية علماً من أدق العلوم وأسرعها

تقدماً ان تسلم هذه الشؤون الفنية الى اي موظف كان ، وان تطغي عليها الروح الوظيفية الروتينية ، بل يجب ان تكون في أيدي المختصين بها ، المتتبعين لأبحاثها ، القائمين هم أنفسهم بابحاثهم وتحرياتهم الخاصة كلّ في موضوعه .

رابعاً : تعزيز التعليم المهني في المرحلتين الابتدائية والثانوية وإيثار التعليم المهني الانتاجي (الهندسة ، الزراعة ، التجارة) على سواه من التعليم المهني في الجامعة . وقد بينت أهمية ذلك في حفظ موارد البلاد وتنميتها .

خامساً : تعزيز دور المعلمين ورفع شأن المعلم . وليسمح لي ان أردد هنا مجدداً ان المعلم هو نقطة الارتكاز في اي إصلاح تربوي ، وانه هو — لا البرنامج ، ولا الكتاب ولا الامتحان ، ولا الموظف المسؤول — العامل الأول في اي جهد او تقدم في هذا المضمار . وليُسمح لي أيضاً ان أناشد افراد الأمة ، وأناشد المعلمين أنفسهم ، وأناشد كل من له اتصال بهذه الشؤون ان نتعاون جميعاً لنعيد لهذا اللفظ — المعلم — حرمته وقداسته وما ينطوي عليه من بذل وارشاد ورعاية عقلية وخلقية وروحية .

سادساً : توسيع البعثات العلمية ودعمها . لم نبلغ بعد في البلاد العربية الحد الذي نستغني به عن علم الغرب وثقافته ، بل نحن في مرحلتنا الانسانية هذه أحوج ما نكون اليهما . ومن الضروري ان تظل صلتنا العلمية بالغرب مستمرة ناشطة ، وان يُسهّل لشبابنا النابهين الاغتراف من معينه والاختمار في جوه .

سابعاً : صوغ برامج التعليم على ضوء حاجات البلاد . وتحقيق هذا يتوقف على تمكين الاعتقاد ان التعليم إعداد لحياة معينة محددة الظروف ، متلائمة مع الحياة الانسانية الأصيلة . ويقتضي عقلية تطورية تتطلع الى سبر غور المجتمع وتتبع اتجاهاته وتحرص على ان تظل برامج التعليم منسجمة مع الحاجات الاساسية التي تدل عليها هذه الاتجاهات .

ثامناً : تغليب مفهوم التعليم على مفهوم التلقين والحفظ . فالتعليم جهد فعلي يتضمن الاكتساب الذاتي لا مجرد التلقي من الغير كما هي الحال في التلقين ، ويؤدي الى تنمية المدارك الفكرية ، لا الذاكرة وحفظ المعلومات فحسب . وتلك صفات اساسية يجب ان نولدها في الشخصية العربية المرتقبة .

تاسعاً : تغليب مفهوم التربية على مفهوم التعليم . فالتعليم ضيق النطاق ومقصور على ناحية واحدة من الشخصية الانسانية ، في حين ان التربية تتناول الشخصية بكاملها ، وتسعى الى تنميتها تنمية متزنة ، تشمل الصفات والمزايا الخلقية والروحية بالاضافة الى الصفات العقلية وبالانسجام معها .

عاشراً : توجيه التربية الجامعية الى تكوين قادة المجتمع . وقد ذكرت خطورة هذا المعنى الارفع من معاني التربية الجامعية ، الذي يسمو بالجامعة عن مجرد التدريب المهني الى مستوى المهمة الخطيرة التي قامت بها خلال التاريخ ، مهمة صنع الرجال وتكوين القادة .

★

وهكذا نعود ، بعد اختتامنا مطافنا بالتربية العربية الى المبدأ الذي انطلقنا منه في مطلع هذا الحديث ، وهو ان مفهوم التربية العربية لا يمكن ان يفصل عن المفهوم الاساسي للتربية مهما اختلفت الظروف والأمكنة والشعوب ، الا وهو تنمية الشخصية الانسانية وتحررها وتكاملها واكتسابها بهذا كله كرامتها الذاتية . ان التربية في العالم اجمع ، ومن ضمنها التربية الغربية ، تتعرض اليوم لمنافسات شديدة واخطار جسيمة . فبعد ان كان المعلم في الماضي هو العامل المؤثر الاكبر في حياة الطالب خلال دراسته ، اذا به اليوم يجد بجانبه الزعيم السياسي والمفكر العقائدي والآمر الحزبي والصحافي والمذيع وسواهم ، ينازعونه النفوذ على عقل الطالب ونفسه . في هذه الحال يصعب عمل المربين ، وتثقل تبعته وتزداد خطورته . ولا امل لهم بالقيام بهذه التبعة على الوجه الصحيح الا اذا ركزوا اصولهم في المعاني الاساسية للتربية ، المعاني التي جلاها اختبار العصور ، وابرزها العلم المتطور المتقدم . هذه المعاني هي التي تصل بين التربية والشخصية الانسانية وتجعل التربية العامل الاساسي في تفتح هذه الشخصية واكتمالها ، وبالتالي في تفتح المجتمع واكتماله .

انا نبغي بناء مجتمع عربي جديد ، فلنركز اصوله في القيم الانسانية الاصيلة ، مدعوماً بقيمنا القومية التي ابرزها ماضينا وفرضها حاضرنا ومستقبلنا .

لقد قال احدهم : «ان الحضارة سباق بين التربية والدمار» . ترى ايكون لنا تربية عربية سباقة ، تصون مجتمعنا من الدمار وتبعثه مجتمعاً عربياً جديداً محققاً لأخلص معاني الحضارة وارقاها ؟ ترى ايكون لنا تربية عربية حية محيية ؟ لعل هذا هو اهم سؤال يتحدانا به واقعنا المتأزم الحاضر .

قسطنطين زريق